قصة زعيم

قصة بقلم فتحي غانم

لست ادري أهو الاتفاق ام التدبير ، الذي جعل اكبر مدرسة في القطر المصري لتعلم الشطرنج تقوم في شارع (البيدق) .

وهو الشارع الخلفي لدار الاوبرا ، حيث مدخل الممثلين والممثلات .. وقبالة هذا المدخل من الناحية الاخرى تقع المدرسة ، او مقهى مخالي القزم اليوناني العجوز . وهو مقهى صغير ضيق يئن من اوجاع الكهولة شاخ فيه كل شيء . ونخر السوس جدرانه الخشبية المتآكلة ، وتهشمت المرايا ، وشغل محلها رسوم وكلمات ، خطها ابناء الفراعنة المولعون بالكتابة على الجدران .

وفي السنين الاخيرة ، عندما كانت المظاهرات المتتابعة قد هشمت زجاج المقهى كله ، قام الورق المقوى مقام الزجاج ، وألواح الخشب مقام المرايا . وكان المكان لا يسمح بانتشار المناضد فيه. لذلك رصت في صف واحد طويل كأنها منضدة واحدة... وفي الحقيقة ما كانت تدعو الحاجة الى فصل المناضد بعضها عن بعض فرواد المقهى متعارفون ، تجمعهم كلهم هواية واحدة هي لعب الشطرنج . وهم يلتفون حول الرقعة يتداولون الأفراس والفيلة والوزراء والملوك في ايديهم وكأنهم الاقدار التي تحرك الوجود ، وترسم للمخلوقات سبيلها المكتوب .

ولعل طبيعة اللعبة هي التي جعلت الغرور يصيب بعض اللاعبين ، فيتخذون لأنفسهم مظهر الديكة المزهوة ، وألقاباً ينادون بها بعضهم بعضاً .. كالزعيم .. والعبقري .. وبطل الشرق .. ووكيل الزعيم .. والموراتي .

وهم جميعاً من امهر اللاعبين وابرعهم ، تهبط عليهم الوفود من جميع انحاء مصر والاقطار العربية ، لتشاهد فنهم . وتسمر معهم في مجلس المرح .

ورواد المقهى خليط نافر من شتى الطبقات والاعمار ، فبينهم الفنان ، وسائق القطار ، والصحافي ، والمحامي ، والطالب ، والطبيب ، والعاطل ، والمزارع .. وبالاختصار كل ما يمكن تصوره من طبقات الشعب المختلفة .

وعبد الحميد افندي السويفي ، هو (الزعيم) . وقد كان مدرساً سابقاً للغة الانكليزية في المدارس الابتدائية . ولما احيل على المعاش واظب على التردد على المقهى وحوله الى مدرسة للشطرنج ، فهو يتأبط كتب الشطرنج يومياً ، ويجلس وسط حلقة الدرس ويفتح كتابه ، ويقيم القطع على الرقعة امامه . ثم يعرض ألعاب مشاهير اللاعبين الدوليين ، ويقرأ شرح نقلاتهم ويتفرس في وجوه من حوله ، وقد احمر وجهه الابيض السمين ، واهتز شاربه الرمادي الكث. وبين فينة واخرى يزعق :

– يا حمار .. ألا ترى الفرس مهدداً بالفيل..يا ولد لا تتعجل الامور .. اياك ان تمد يدك الى القطع .

وهو لا يطيق ان يناقشه احد. فهو المدرس الذي يعيش وسط التلاميذ، العالم الذي يحيطه الجهلاء . وليس لتلاميذه – وهم رواد المقهى جميعاً بلا استثناء – إلا ان يستمعوا الى الدرس وهم صاغرون .

وأحب الدروس الى قلب السويفي افندي، هو درس المسائل الشطرنجية، فهو ينظم القطع في مواقف خاصة ، ثم يعلن على تلاميذه في صوت رنان :

– الآن يموت الملك الاسود بعد نقلتين يلعبها الابيض .

ويبذل التلاميذ جهداً عظيما للوصول الى الحل. وقد يمضي وقت طويل وهم لا يفلحون . وهنا يوسعهم الزعيم تأنيباً وسخرية ، وتهكماً وإشفاقاً من جهلهم وغبائهم الوراثي . ثم يفتح الكتاب الذي لا يطلع عليه احد قط ، ويقرأ فيه الحل ، ثم يعلنه على الجميع كأنه يعلن نتيجة الامتحان !

ومن المؤسف ، ان تكون الجهود التي يبذلها السويفي افندي في سبيل الشطرنج تجد جحوداً من الكثيرين . فحسن بك خورشيد مثلا ، لا يكف عن ترديده (ان السويفي افندي مخرف مجنون...انه رجل جاهل مغرور... لسنا تلاميذ في كتاب ... انه يزعق كالحيوان ...) والعبقري ، يعاكس السويفي افندي من مكانه في آخر المقهى. كما عاكسه التلاميذ الكبار في آخر الفصل من قبل . وقد اعتاد ان يقطع شرح السويفي افندي ، بصرخة مدوية ، صائحاً :

– الجهلاء .. كالعلماء . سواء .. بسواء !

واحياناً يثور السويفي افندي عليه ، فيقف منفعلاً ويوجه كلامه الى العبقري .

– يا حيوان ... يا سكير ... يا ساقط ... اخرس .

فينظر اليه العبقري نظرة مجنون ثم يضحك ضحكة قصيرة ، ويلتفت الى من حوله قائلاً عفو الخاطر :

– لقد بقبق ... الطليليون.

فيسأله احد الجالسين :

– من هم الطليليون الذين يبقبقون ؟

فيضحك العبقري ضحكة ساخرة محملة بالازدراء ويجيب .

– انهم الطليان... الم تسمعهم يبقبقون ايام الحرب في سيدي براني !

والكلمات تخرج من فم العبقري ، كما تخرج خطوط الرسم السريالي من يد الرسامين ، وعليك ان تقبل كلمات العبقري على علاتها بلا مناقشة ، واذا راجعته فيها ، فلن تنال منه إلا السخرية والازدراء .

في يوم من الايام دخل المقهى ، حسن بك خورشيد ، وهو من الاعيان الاتراك ، الذين يتأنقون في ملبسهم وكلامهم ، واتجه من فوره الى حلقة درس السويفي افندي ، وصاح فيه متحدياً :

– عندي لغز شطرنجي... اتحداك ايها الأستاذ الخطير ان تعرف حله.

واحتقن الدم في وجه السويفي افندي وقال في غضب .

– من انت حتى تتحداني ... هات كل ما عندك من الغاز ، وسأحلها في خمس دقائق .

وتقدم خورشيد بك من الرقعة واقام عليها القطع ثم قال في فرح صبياني :

– هل تستطيع ان تميت الملك الاسود في ثلاث نقلات ؟.

وانطلقت الاجابة من فم السويفي افندي كالقذيفة :

– طبعاً !

وانصرف السويفي افندي الى التفكير في اللغز ، وكلما فكر ، ايقن انه قد تورط في مشكلة معقدة لا خلاص منها . وبدأ السويفي افندي يحس ان كرامته وحياته كمدرس تتأرجح في الميزان . خاصة وان العبقري قد بدأ يغني قائلاً :

دا شيء جميل – كالدرفيل – هات الفيل – لا.. يا خليل – زلومة طويل – طويل طويل .

واحس السويفي افندي بأنه المقصود بغناء العبقري، لأنه كان قد امسك بالفيل لينقله معتقداً انه وجد الحل ، ثم اكتشف خطأ ظنه . وزاد احتقان وجه السويفي افندي ، وكان لا يدير رأسه يمنة او يسرة ، ولا ينظر إلا امامه ، وقد شدت عيناه الى القطع . ومرت ساعات ، وحل موعد الغداء ، فانصرف من انصرف،وبقي الآخرون يتناولون طعامهم وهم يرقبون السويفي افندي ، وكان بينهم حسن بك خورشيد ، الذي كان يحاضر رجلاً الى جانبه عن الشطرنج فيقول :

– المخ النظيف هو الاساس ... فالأغبيـــاء لا يلعبون الشطرنج ... تولستوي .. ونابليون ... وهارون الرشيد ... والفريد دي موسيه ... هم الذين برعوا في لعب الشطرنج .

ثم ادار بصره فيمن حوله وتنحنح . ثم صاح في الخادم .

– اعطني كوب ماء .

ثم التفت الى السويفي افندي ، وقال له في رقة وادب ممسول :

– ماذا تشرب يا سويفي بك ؟

وزمجر السويفي افندي بكلام غير مفهوم ، ولكن فهم منه انه يرفض ان يطلب شيئاً ، وعاد الى تفكيره العميق . ومضت ساعات وساعات حتى اقبل الليل ، وفجأة صاح الزعيم :

– لقد وجدت الحل . ونهض الجميع فجـأة والتفوا من حوله ليجدوا صدق ادعائه، وامسك السويفي افندي ، (الذي كافح هذه الساعات الطوال ليؤكد زعامته) بالفيل الذي كان قد امسك به من قبل ، ونقله نقلة واحدة ثم نظر الى خورشيد بك بانتصار وقال « هذا هو الحل » .

وما كاد خورشيد بك يقول ...

– صدقت ... هكذا يموت الملك الاسود .

حتى سقط رأس الزعيم على صدره .فصاح العبقري ضاحكاً :

– لقد مات الزعيم هو الآخر .

وقال خورشيد بك في ذعر :

– لقد اغمي عليه :

وحاول اثنان انهاض الزعيم . بينما صرخ العبقري في صاحب المقهى :

– يا مخالي الكلب ، هات كوب ماء ... هات نشادر ...

وجعلوا يدلكون يـــدي الزعيم . وخلعوا رباط عنقه ، وفكوا قميصه والصقوا آذانهم واحداً تلو الواحد بصدره ، وقد غشيهم قلق وحيرة ، حتى قال احدهم ، ووجهه ابيض كالثلج :

– لقد مات .

واشتد القلق ، وساد الذعر في المقهى . واتصلوا بالاسعاف ، واستدعوا طبيباً ، ولكن نظرة واحدة الى الزعيم كانت تكفي لنعرف انه لن ينهض من نومه هذه المرة ، وتعاونوا على حمله ، وارقدوه على المناضد المتلاصقة . ووقفوا من حوله صامتين .

وكان يقطع الصمت ، صوت بائع يدخل وهو ينادي بأعلى صوته ... «بيض سميط وجبنة»...او سائل ينادي «لله...لله يا اسيادي»او ماسح احذية يضرب صندوقه الخشبي قائلاً ... « تمسح يا بك ... » ولكنهم كانوا يتبينون جميعاً حقيقة ما حدث ، فيصمتون ويتساءلون في همس وخوف .

وانفجر العبقري بالبكاء عندما جاء (مخالي) بمنشفة غطى بها وجه الزعيم ، وسرت همهمة . وانطلق العبقري يندب :

– آه يا عبد الرحمن ... آه يا حبيبي .

وكان موقف العبقري مريباً . هل يبكي نتيجة تأثر حقيقي . ام جنون اطار صوابه ؟ ووقف خورشيد بك عند باب المقهى يفحص ساعته الذهبية في قلق وقد نسي منشته العاجية على مقعده داخل المقهى.وجعل يحدث نفسه في غيظ:

– كلهم حيوانات ، لا احترام للموت .. لعله لم يمت بعـــد ، ولكنهم سيخنقونه بهذا التدافع .

وكثرت الاسئلة داخل المقهى :

– أنتركه هكذا حتى يأتي الاسعاف ؟

– اين يسكن ؟

– الا يعلم احد كيف نتصل بأهله ؟

وكأن الزمن لا يمر ، والجثة لم تعد شخصاً كان يحيى بينهم ، ويصيح ، وينهر ، ويدرس فن الشطرنج ... لقد اصبح شيئاً آخر غير الناس، انفصل عنهم ، ولا هم لهم إلا التخلص منه والاسراع بدفنه .

كان الزعيم مستلقياً على رخام المناضد البارد ، وقد سقطت كتبه عـــلى الارض ، وداستها الاقدام ... ولكن الزعيم كان قد أكد زعامته قبـــل الموت ، بل هو قد استشهد من اجلها ... ولما جاءت سيارة القصر العيني ، وحمله رجال يلبسون الملابس البيضاء . سألوا عن اهله وعنوانه فلم يجبهم احد فمضوا به ...

وبدأ الباعة يزعقون من جديد ، وكل واحد من رواد المقهى يعود الى مكانه ، وانصرف بعضهم الى اللعب ، ولكنهم تركوا مقعد الزعيم خاليـــاً لا يشغلونه ، لأن من كان في المقهى في ذلك المساء ، كان يستشعر في نفسه ان ضوء المكان اصبح اكثر خفوتاً ، وان الاصوات اقل جلبة ، وان اللاعبين أقل حركة ، وكأن الدنيا تسير على مهل ، كما يسير الجند بخطواتهم البطيئة في مواكب الحداد ، او كما تستطيل انغام الموسيقى ، اذا عبرت عن الحزن ، او صورت مرارة الوداع .

القاهرة **فتحي غانم**